خطبة بعنوان

((وجوب التوبة من كل ذنب))

الْـخُـطْـبَـة الأُولَـــى

إِنَّ الْحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمن سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 70-71].

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الحَدِيْثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ، هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أما بعد:

فإن الله تعالى لما علم من عباده أنهم سيعصونه، ويخالفون أمره، ويرتكبون نهيه - إلا من رحم الله - فتح لهم باب التوبة، ثم نظر إلى قلوبهم فمن علم فيه خيرا وفقه للتوبة ويسر له أسبابها، ثم يقبلها منه، قال تعالى:{ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }[سورة التوبة : 104]

ومن رحمته تعالى أنه لم يرد تائبا ،كائنا من كان، ولو كان كافرا ،فإن الله يقبل توبة التائبين، ولو اقترف ما اقترف من الخطايا والمنكرات، فإن التوبة تمحو ما قبلها إذا كانت بشروطها، قال تعالى{ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ }[سورة الأنفال : 38]

وهكذا كل من أذنب ذنبا صغيرا كان أو كبيرا، ثم تاب فإن الله غفور رحيم، قال تعالى:{ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا }[سورة النساء : 110]

وقال تعالى:{ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ }[سورة الأعراف : 153]

بل إن من أذنب فبادر بالتوبة والاستغفار عقب الذنب، فإن الذنب لا يُكتب أصلا، فقد روى الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطئ فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها وإلا كتبت واحدة"

وهكذا فإن الله تعالى يمهل المُصِرّين فيعطهم فرصًا للتوبة ،ويحلم عنهم فلم يعاجلهم بالعقوبة، بل فتح لهم باب التوبة، ووعدهم بقبولها، فمن وُفِّق للتوبة وصدق فيها، وكانت بشروطها قبلها الله منه، قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }[سورة التحريم : 8]والتوبة النصوح هي التوبة الصادقة التي جمعت شروط التوبة، وهي الإقلاع عن الذنب، والعزم على عدم العودة إليه، والندم على ما فات، وسيأتي ذكر ذلك بأدلته إن شاء الله تعالى.

وقد علق تعالى الفلاح بالتوبة فقال سبحانه:{وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }[سورة النور : 31]

ولقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم توابا أوابا وهو الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقد روى الإمام مسلم عن الأغر بن يسار رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إِلَى اللَّهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ "

فمن أكثر التوبة والاستغفار غفرت ذنوبه كلها، دقها وجلها صغيرها وكبيرها إذا كانت بشروطها ،فقد روى الترمذي عن بِلَال بْن يَسَارِ بْنِ زَيْدٍ ، قَالَ : حَدَّثَنِي أَبِي ، عَنْ جَدِّي أنه سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " مَنْ قَالَ : أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيَّ الْقَيُّومَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ ؛ غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ ".

عباد الله: إن الله تبارك وتعالى ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا يناديا ليغفر لنا ذنوبنا ويتوب علينا، فهل من مجيب، وهل من تائب؟ فقد روى البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، يَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ"

بل إن الله تبارك وتعالى يضحك ويعجب ويفرح بتوبة عبده إذا تاب إليه، وهذا لفضل التوبة ،فإن الله يحب التوابين ويحب من عباده أن يتوبوا إليه ويفرح لتوبتهم رحمة بهم، فسارعوا بالتوبة يا عباد الله واغتنموها، فيالها من فرص ثمينة، ويالها من بشارة ويالها من غنيمة لمن وفقه الله للتوبة، فقد روى البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ،رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ ". فَقَالُوا : كَيْفَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : " يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَيُسْتَشْهَدُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْقَاتِلِ، فَيُسْلِمُ، فَيُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَيُسْتَشْهَدُ ".

وفي رواية عند النسائي:" إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَعْجَبُ مِنْ رَجُلَيْنِ، يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ.." الحديث

وروى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم عن أَنَس بْن مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " للَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ : اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ ".

أيها التائب: إن الله تعالى يفرح بتوبتك وهو غني عنك، ثم يغفر ذنوبك ولا تضره معصيتك، ويغسل حوبتك، ويرفع درجتك رحمة بك ،فلا تبخل على نفسك بكثرة التوبة والاستغفار.

فهذه أربع صفات ثابتة لله تعالى كما تليق به بغير تكييف ولا تمثيل، ولا تحريف ولا تعطيل {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ }[سورة الشورى : 11]

و هي صفة النزول، فإنه تعالى ينزل نزولا يليق بجلاله، ويضحك ضحكا يليق بجماله، ويَعجب عجبا يليق بكماله ،ويفرح فرحا يليق بعظمته وكبريائه، لا يماثل المخلوقين في صفاتهم، فكما أنه ثبت لله تعالى علمٌ وسمعٌ وبصرٌ وذاتٌ لا تماثل صفات المخلوقين ولا ذواتهم، فكذلك هذه الصفات الأربع لا تماثل صفات المخلوقين.

الشاهد: أن للتوبة فضلا عظيما، وشأنا كبيرا، حيث إن ربنا تبارك وتعالى يضحك ويفرح ويعجب من شأن التائبين، وينزل إلى السماء الدنيا آخر الليل فينادي عباده للتوبة، فيالها من منقبة للتائبين، استيقظوا أيها النائمون، فتقربوا إلى رب العالمين، وتوبوا إلى بارئكم ليغفر ذنوبكم وتكونوا من الفائزين.

ومن فضل التوبة أن الله تبارك وتعالى خيَّر نبينا صلى الله عليه وسلم بين أن يجعل لعباده جبل الصفا ذهبا أو يفتح لهم باب التوبة والرحمة، فاختار لهم باب التوبة والرحمة.

فقد روى الإمام أحمد عن ابْنِ عَبَّاسٍ ،رضي الله عنهما، قَالَ : قَالَتْ قُرَيْشٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ادْعُ لَنَا رَبَّكَ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا الصَّفَا ذَهَبًا وَنُؤْمِنُ بِكَ. قَالَ : " وَتَفْعَلُونَ ؟ " قَالُوا : نَعَمْ. قَالَ : فَدَعَا، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ : إِنَّ رَبَّكَ عَزَّ وَجَلَّ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ لَكَ : إِنْ شِئْتَ أَصْبَحَ لَهُمُ الصَّفَا ذَهَبًا، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُمْ عَذَّبْتُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْتُ لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ. قَالَ : " بَلْ بَابُ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ ".

فو اللهِ وباللهِ وتاللهِ لأن يوفق الله العبد للتوبة ثم يتوب عليه ويرحمه خير له من كنوز الدنيا وما فيها، لأن الدنيا فانية، وما عند الله باقٍ، فالمؤمن الصادق هو الذي يرجو رحمة ربه، ويخاف من عذابه، ويزهد في الدنيا الدنيئة، ولكن صار عامة الناس همهم الدنيا، فيحرصون عليها أكثر من الآخرة، إلا من رحم الله، ومع هذا فإن الله تعالى يتوب على من تاب، فقد روى البخاري ومسلم عَنْ أَنَسٍ ،رضي الله عنه، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى وَادِيًا ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ ".

قال الحافظ بن حجر رحمه الله :(أي أن الله يقبل التوبة من الحريص كما يقبلها من غيره،قيل: وفيه إشارة إلى ذم الاستكثار من جمع المال وتمني ذلك والحرص عليه)ا.ه

عباد الله: كلنا ذوو أخطاء، والمعصوم من عصم الله من أنبيائه ومن شاء من أوليائه وعباده الصالحين، وإلا فإنه لا يسلم من الذنوب إلا من سلَّم الله، فعلى هذا يجب علينا أن نتوب ليلا ونهارا، وأن نلازم التوبة في كل أحوالنا، وأن نتوب إلى الله من كل ذنب، قال الله في الحديث القدسي:" يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ" أخرجه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه.

وروى ابن ماجه عَنْ أَنَسِ بن مالك رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ" فكن من خير الخطائين، وكن من أول التوابين، فقد كان من دعاء أبي بكر الصديق رضي الله عنه:" اللَّهُمَّ، إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" وأبو بكر خير هذه الأمة بعد نبيها ،ومع هذا يدعو بهذا الدعاء العظيم تائبا إلى الله من ذنوبه راجيا رحمة ربه.

فقد روى البخاري ومسلم ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي. قَالَ : " قُلِ : اللَّهُمَّ، إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ"

فلا يجوز التساهل بالتوبة يا عباد الله، ولا يجوز الإصرار على الذنوب، ولا يجوز التسويف فيها، بل تجب على الفور، واحذر أيها الشاب أن تسوّف بالتوبة بحجة أنك لا زلت شابا وأنك ستتوب في المستقبل، فإن التسويف من عمل الشيطان، فإنك لا تضمن نفسك أن تبقى حتى تتوب، وربما كثرت عليك الذنوب فغطت على قلبك وأصابك الران فلا تتمكن من التوبة ولا تستطيع أن تتوب، ثم إنه يجدر بك أن تسارع بالخيرات من صغرك وتكثر من التوبة في ريعانة شبابك، وأن تتزود من الخيرات في سائر عمرك، فإن خير الناس يوم القيامة من حسنت أعمالهم وكثرت حسناتهم واغتنموا أعمارهم في طاعة مولاهم، ورجحت حسناتهم على سيئاتهم، فلا تتمادى بالذنوب فإن لها خطرا على القلوب، فقد روى الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ،رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ، سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ : { كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } ".

وروى الإمام مسلم عن حذيفة، رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا ، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ "

فاغتنم عمرك في طاعة الله، ولا تهدرْه في اللهو واللعب وضياع الأوقات فيما لا ينفع فتندم عليه في يوم لا ينفع فيه الندم ،فقد روى الترمذي عن أَبِي بَكْرَةَ ، رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ ؟ قَالَ : " مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ ". قَالَ : فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ ؟ قَالَ : " مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ "

فمن صدق في توبته، وأحسن عمله فيما بقي من عمره، غُفِرَ له ما تقدم من ذنوبه، فقد روى الطبراني عن أبي ذر رضي الله عنه، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أحسن فيما بقي غفر له ما مضى،ومن أساء فيما بقي أخذ بما مضى وما بقي"

ولا تيأس أيها المذنب ،فإنك ستقدم على كريم، فاصدقِ اللهَ يصدقْك، يقول رب العزة والجلال في كتابه الكريم:{ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }

[سورة الزمر : 53]لكن هذه المغفرة لجميع الذنوب مقيدة بالتوبة الصادقة النصوح كما قال ربنا سبحانه وتعالى في آية أخرى:{ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ }[سورة طه : 82]فإذا صدق العبد في توبته، وعمل بشروط التوبة، غفر الله له ذنوبه وإن بلغت عنان السماء، فقد روى ابن ماجه عن أَبِي هُرَيْرَةَ ،رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " لَوْ أَخْطَأْتُمْ، حَتَّى تَبْلُغَ خَطَايَاكُمُ السَّمَاءَ، ثُمَّ تُبْتُمْ، لَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ "

وروى الترمذي عن أَنَس بْن مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ، وَلَا أُبَالِي. يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي. يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً ".

وإن الله تعالى ذِكرُه وتقدست أسماؤه لايزال يبسط يده بالليل والنهار وينادي عباده كل ليلة ليتوب عليهم وقد سمى نفسه التواب ،فقد روى مسلم عَنْ أَبِي مُوسَى ،رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا "

فقد تاب الله على رجل قتل مائة نفس، وذلك أنه لما علم صدق نيته وفقه للتوبة وحسن الخاتمة ،فقد روى البخاري ومسلم واللفظ له ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ،رضي الله عنه، أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ : إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ فَقَالَ : لَا. فَقَتَلَهُ، فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ : إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ، انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ، فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ ؛ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ. فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ : جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ. وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ : إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ. فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ : قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ. فَقَاسُوهُ، فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ ". قَالَ قَتَادَةُ : فَقَالَ الْحَسَنُ : ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ لَمَّا أَتَاهُ الْمَوْتُ نَأَى بِصَدْرِهِ.

وفي رواية:" فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي، وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي وَقَالَ : قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا. فَوُجِدَ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ، فَغُفِرَ لَهُ "

ويُستفاد من هذا الحديث فوائد كثيرة منها: البعد عن أرض المعاصي وأهل المعاصي، ومنها: سؤال العلماء وعدم سؤال الجهال، فإن هذا الراهب لقي حتفه بسبب جهله، ويستفاد منه عدم الفتيا بغير علم، فمن علم شيئا نفع الناس به، وإلا وجب عليه السكوت ،ولا يجوز لأحد أن يقول على الله بغير علم، ولا يجوز ارتكاب المعاصي وقتل النفس التي حرم الله بحجة أن التوبة تجبُّ ما قبلها، فإن المكثر من المعاصي قد لا يوفق للتوبة، ثم إن للتوبة شروطا سيأتي ذكرها قريبا، وليس في هذا الحديث أن هذا القاتل لم يأتِ بشروط التوبة أو لم يؤدِ حقوق أولياء الدم كما يفهم البعض، فالذي يظهر أنه عمل بشروط التوبة كلها ولهذا قبل الله توبته، وهناك احتمالات كثيرة، وإنما شاهدُنا من الحديث سعة رحمة الله تعالى على عباده التائبين وإن كثرت ذنوبهم، فإن الله تعالى لا يتعاظم عليه ذنب غفره، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا – وَرُبَّمَا قَالَ : أَذْنَبَ ذَنْبًا – فَقَالَ : رَبِّ أَذْنَبْتُ – وَرُبَّمَا قَالَ : أَصَبْتُ – فَاغْفِرْ لِي. فَقَالَ رَبُّهُ : أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ : رَبِّ أَذْنَبْتُ – أَوْ أَصَبْتُ – آخَرَ فَاغْفِرْهُ. فَقَالَ : أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا ". وَرُبَّمَا قَالَ : أَصَابَ ذَنْبًا. قَالَ : " قَالَ : رَبِّ أَصَبْتُ أَوْ قَالَ : أَذْنَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي. فَقَالَ : أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي – ثَلَاثًا – فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ "

والمعنى أن من كان هذا حاله، وهو أنه كلما أذنب ذنبا تاب منه واستغفر فليعمل ما شاء إذا كان توابا أوابا ،وليس المعنى أنه يصر على الذنب ويعزم على فعله متى شاء، هذه ليست توبة، ولكن قد يتوب العبد من الذنب ثم تسول له نفسه الأمارة بالسوء كماهي طبيعة البشر، والشيطان ينزغ ويوسوس فيعمل الذنب مرة أخرى، لكنه يتوب منه فيتوب الله عليه مرة أخرى وهكذا.

قال المنذري رحمه الله:(قوله فليعمل ما شاء معناه والله أعلم: أنه ما دام كلما أذنب ذنبا استغفر وتاب منه ولم يعد إليه بدليل قوله:" ثم أصاب ذنبا آخر فليفعل"إذا كان هذا دأبه"ما شاء"لأنه كلما أذنب كانت توبته واستغفاره كفارة لذنبه فلا يضره، لا أنه يذنب الذنب فيستغفر منه بلسانه من غير إقلاع ثم يعاوده فإن هذه توبة الكذابين"والله المستعان.

الخطبة الثانية

الحمد لله [غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ۖ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ]{ سورة غافر : 3]

الحمد لله قابل توبة التائبين، وغافر ذنوب العصاة والمذنبين، والمتجاوز عن المسيئين، والشاكر لأعمال المحسنين.

أما بعد:

فهذه بشرى للتائبين بأن الله تعالى قد فتح بابا للتوبة من قبل المشرق لا يغلق حتى تقوم الساعة، كما روى الإمام أحمد عن صفوان بن عسال رضي الله عنه أن النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :"إِنَّ مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ لَبَابًا مَسِيرَةُ عَرْضِهِ سَبْعُونَ – أَوْ أَرْبَعُونَ – عَامًا، فَتَحَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلتَّوْبَةِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَلَا يُغْلِقُهُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ "

وهذه بشرى أخرى أيضا بأن التوبة تمحو ماقبلها، بل إن الله تعالى يبدل سيئات التائبين إلى حسنات فلا تيأس يا أيها المذنب فإن اليأس من رحمة الله من كبائر الذنوب، قال تعالى:{ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (70) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا]{ سورة الفرقان : 70 إلى 71]

فأكثروا من الحسنات فإنها تذهب السيئات، فقد قال ربنا في كتابه الكريم :{ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ]{ سورة هود : 114]

وروى الترمذي عن أَبِي ذَرٍّ ،رضي الله عنه، قَالَ ، قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ "

قال العلامة العثيمين :(ومن الحسنات بعد السيئات أن تتوب إلى الله من السيئات فان التوبة من افضل الحسنات، كما قال الله عز وجل: [إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين] (البقرة: من الآية222)ا.ه

وروى الطبرانيعن أبي طويل شطب الممدود أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أرأيت من عمل الذنوب كلها ولم يترك منها شيئا وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلا أتاها فهل لذلك من توبة قال:"فهل أسلمت" قال أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله قال :"تفعل الخيرات وتترك السيئات فيجعلهن الله لك خيرات كلهن" قال وغدراتي وفجراتي قال:" نعم" قال الله أكبر فما زال يكبر حتى توارى.

فتوبوا يا عبادَ الله: فإن "التَّائِبَ مِنَ الذَّنْبِ، كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ "ثبت ذلك عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند ابن ماجه وغيره من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

عباد الله: إن هذه الفضائل المترتبة على التوبة منوطة بشروط لابد من مراعاتها، والعمل بها، بل لا يقبل الله توبة تائب إلا بها.

قال النووي رحمه الله :(قال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب, فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي, فلها ثلاثة شروط: أحدها: أن يقلع عن المعصية. والثاني: أن يندم على فعلها. والثالث: أن يعزم أن لا يعود إليها أبدا. فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته)ا.ه

وإن كان الحق بين العبد وأخيه المسلم فلا تتم التوبة إلا بإرجاع الحقوق إلى أهلها أو استسمح منهم.

ولابد أن تكون التوبة قبل الغرغرة وسكرات الموت، وقبل أن تطلع الشمس من مغربها فإن الناس إذا رأوا ذلك آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا.

وإليكم الأدلة على ذلك:

-فدليل الإقلاع عن الذنب: قوله تعالى:{ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ]{ سورة الأعراف : 201]

-ودليل العزم على عدم العودة إلى الذنب، ما رواه الطبراني عن أبي ذر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" من أحسن فيما بقي غفر له ما مضى ومن أساء فيما بقي أخذ بما مضى وما بقي"

-ودليل الندم :ما رواه ابن ماجه عن عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود، رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " النَّدَمُ تَوْبَةٌ "

-ودليل إرجاع الحقوق إلى أهلها أو الإستسماح منهم، ما روى الإمام البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ،رضي الله عنه ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلِمَةٌ لِأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لِأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ "

-ودليل قبول التوبة قبل الغرغرة، قوله تعالى:{ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَـٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (17) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُولَـٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (18) }[سورة النساء : 17 إلى 18]

قال ابن كثير رحمه الله :(وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس (ثم يتوبون من قريب) قال : ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت ، وقال الضحاك : ما كان دون الموت فهو قريب . وقال قتادة والسدي : ما دام في صحته)ا.ه

أما إذا كانت التوبة عند معاينة الموت وسكراته فلن تُقبل كما لم يقبلها الله من فرعون عليه لعائن الله، قال تعالى:{ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ }[سورة يونس : 90]

وروى الترمذي عَنِ ابْنِ عُمَرَ، رضي الله عنهما ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ "

-ودليل عدم قبول التوبة عند طلوع الشمس من مغربها: قوله تعالى:{ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ } [سورة الأنعام : 158]

أما من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليها إذا كانت التوبة بشروطها، فقد روى الإمام مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ،رضي الله عنه، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ؛ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ ".

ومن أصاب حدا فتوبته أن يقام عليه الحد، من زنا، أو سرقة، أو قتل نفس محرمة، أو خمر، أو نحو ذلك من الحدود.

فقد روى مسلم عن بُرَيْدَةَ ، رضي الله عنه ، قَالَ : جَاءَ مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، طَهِّرْنِي. فَقَالَ : " وَيْحَكَ ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ، وَتُبْ إِلَيْهِ ". قَالَ : فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، طَهِّرْنِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " وَيْحَكَ، ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ، وَتُبْ إِلَيْهِ ". قَالَ : فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، طَهِّرْنِي. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى إِذَا كَانَتِ الرَّابِعَةُ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " فِيمَ أُطَهِّرُكَ ؟ " فَقَالَ : مِنَ الزِّنَى. فَسَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَبِهِ جُنُونٌ ؟ " فَأُخْبِرَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَجْنُونٍ، فَقَالَ : " أَشَرِبَ خَمْرًا ؟ " فَقَامَ رَجُلٌ، فَاسْتَنْكَهَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ رِيحَ خَمْرٍ، قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَزَنَيْتَ ؟ " فَقَالَ : نَعَمْ. فَأَمَرَ بِهِ، فَرُجِمَ، فَكَانَ النَّاسُ فِيهِ فِرْقَتَيْنِ ؛ قَائِلٌ يَقُولُ : لَقَدْ هَلَكَ، لَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ. وَقَائِلٌ يَقُولُ : مَا تَوْبَةٌ أَفْضَلَ مِنْ تَوْبَةِ مَاعِزٍ أَنَّهُ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِهِ، ثُمَّ قَالَ : اقْتُلْنِي بِالْحِجَارَةِ. قَالَ : فَلَبِثُوا بِذَلِكَ يَوْمَيْنِ، أَوْ ثَلَاثَةً، ثُمَّ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُمْ جُلُوسٌ، فَسَلَّمَ، ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ : " اسْتَغْفِرُوا لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ ". قَالَ : فَقَالُوا : غَفَرَ اللَّهُ لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ. قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ ". قَالَ : ثُمَّ جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ غَامِدٍ مِنَ الْأَزْدِ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، طَهِّرْنِي. فَقَالَ : " وَيْحَكِ، ارْجِعِي فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ، وَتُوبِي إِلَيْهِ ". فَقَالَتْ : أَرَاكَ تُرِيدُ أَنْ تُرَدِّدَنِي كَمَا رَدَّدْتَ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ. قَالَ : " وَمَا ذَاكِ ؟ " قَالَتْ : إِنَّهَا حُبْلَى مِنَ الزِّنَى. فَقَالَ : " آنْتِ ؟ " قَالَتْ : نَعَمْ. فَقَالَ لَهَا : " حَتَّى تَضَعِي مَا فِي بَطْنِكِ ". قَالَ : فَكَفَلَهَا رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، حَتَّى وَضَعَتْ، قَالَ : فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ : قَدْ وَضَعَتِ الْغَامِدِيَّةُ. فَقَالَ : " إِذَنْ لَا نَرْجُمُهَا وَنَدَعُ وَلَدَهَا صَغِيرًا لَيْسَ لَهُ مَنْ يُرْضِعُهُ

فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ : إِلَيَّ رَضَاعُهُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ. قَالَ : فَرَجَمَهَا.

صلى عليك الله يا رسول الله، ما أرحمك بأمتك صغارا وكبارا، فهو الرؤوف الرحيم كما وصفه ربه، لم يتسبب في قتل الجنين برجم أمه ،ولم يحرمه من لبنها، وردهما مرارا رحمة بهما، لعلهما يتوبان فيما بينهما وبين ربهما، فيستفاد من هذا أنه من ألَمَّ بشيء من هذه القاذورات ثم ستر نفسه وصلحت حاله فذلك كافٍ في توبته مالم يبلغ أمره إلى الحاكم. { مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا }[سورة النساء : 147]

وروى البخاري ومسلم عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، رضي الله عنه ، أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ أَتَتْ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهِيَ حُبْلَى مِنَ الزِّنَى، فَقَالَتْ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ. فَدَعَا نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِيَّهَا، فَقَالَ : " أَحْسِنْ إِلَيْهَا، فَإِذَا وَضَعَتْ فَأْتِنِي بِهَا ". فَفَعَلَ، فَأَمَرَ بِهَا نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَشُكَّتْ عَلَيْهَا ثِيَابُهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا، فَرُجِمَتْ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهَا، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : تُصَلِّي عَلَيْهَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَقَدْ زَنَتْ ؟ فَقَالَ : " لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ تَعَالَى ؟ ".

أما الصغائر فإن الأعمال الصالحة من صلاة وصيام وصدقة تكفرها، فقد روى البخاري ومسلم عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ. قَالَ : وَلَمْ يَسْأَلْهُ عَنْهُ. قَالَ : وَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَصَلَّى مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّلَاةَ، قَامَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا، فَأَقِمْ فِيَّ كِتَابَ اللَّهِ. قَالَ : " أَلَيْسَ قَدْ صَلَّيْتَ مَعَنَا ؟ ". قَالَ : نَعَمْ. قَالَ : " فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ ذَنْبَكَ "، أَوْ قَالَ : " حَدَّكَ ".

وقوله إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا)قال بعض أهل العلم :"لعله من الصغائر فَظَنَّ بِأَنَّهُ يُوجِبُ الْحَدَّ عَلَيْهِ ".

وروى البخاري ومسلم عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِن امْرَأَةٍ قُبْلَةً، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : { أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ }. فَقَالَ الرَّجُلُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلِي هَذَا ؟ قَالَ : " لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ

فتوبوا إلى الله يا عباد الله .

فإن التوبة واجبة من كل ذنب، فتجب التوبة إلى الله من الشرك، ومن الرياء، ومن الحلف بغير الله، وتجب التوبة إلى الله من التهاون بالصلاة، وتجب التوبة إلى الله من أكل الحرام، ومن النظر إلى الحرام، ومن استماع الأغاني، وتجب التوبة إلى الله من الكذب والغيبة والنميمة واللعن والسب والسخرية بالآخرين، وتجب التوبة إلى الله من الربا والرشا والحيل، وتجب إلى الله من عقوق الوالدين وقطيعة الأرحام، وتجب التوبة إلى الله من سوء الجوار ومؤاذاة الجيران، وتجب التوبة إلى الله من جميع الذنوب صغيرها وكبيرها جليها وخفيها {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }

نستغفر الله العظيم ونتوب إليه من جميع ذنوبنا.

.يا رب إن عظُمت ذنوبي كثرةً***فلقد علمت بأن عفوك أعظمُ

إن كان لا يرجوك إلا محسنٌ*** فبمن يلوذ ويستجير المجرمُ

اللهم تب علينا واغفر لنا وارحمنا،{ رَّبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ }

تنسيق ابو عبد الله الأحمدي